

ملامح التجديد الديني عند مفكري عصر النهضة ودعاة الإصلاح

The features of religious renewal among renaissance thinkers and supporters of reform.

¹بوشنتوف إسماعيل *¹ جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، ismailbouchentouf14@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/07/31

تاريخ القبول: 2024/07/25

تاريخ الاستلام: 2023/12/25

ملخص:

تطرح قضية التجديد عند مفكري عصر النهضة، واقع الخطاب الديني، وما آل إليه الوضع العربي من تخلف وانحطاط، وكذا اتساع الهوة بين الشرق والغرب، وذلك نتيجة انغلاقه و انغماسه في عقيدته، وأصالته الثابتة ومن جهة تأثره بالوافد الجديد من الغرب، وهو ما نتج عنه ميلاد حركات فكرية، واتجاهات تصحيحية في عصر النهضة، تدعو إلى ضرورة التجديد الديني والإصلاح السياسي والاجتماعي، والأخذ بعوامل التقدم والتطور وشروط المعاصرة، وفي نفس الوقت الحفاظ على الهوية الإسلامية وأصالتها، على غرار مفكري عصر النهضة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

كلمات مفتاحية: التجديد الديني، الفكر الإسلامي، الإصلاح، الأصالة، المعاصرة.

Abstract:

The issue of renewal for the thinkers of the renaissance era raised the reality of the religious discourse, the backwardness and decline of the Arab situation as well as the widening of the gap (difference) between the East and the West, as a result of its closure and immersion in its beliefs and its unwavering originality. On the other hand, it was influenced by the newcomer from the West which resulted in the birth of intellectual movements and corrective trends in the renaissance era calling for the necessity of religious renewal, political and social reform taking into account the factors of progress, development and the conditions of contemporaneity, but at the same time preserving the Islamic identity and its originality, similar to the thinkers of the renaissance era, Jamal-Adin Al Afghani and Mohammad Abdo.

Keywords: religious renewal, Islamic thought, reform, originality, contemporary.

مقدمة:

تعتبر قضية التجديد في الفكر العربي الإسلامي، من القضايا المحورية التي نالت اهتمام الباحثين والمفكرين، الذين حاولوا النظر في الخطاب الديني وعلاقته بالواقع العربي، ويمكن القول كذلك أنها من أبرز القضايا التي تأسست عليها الحضارة العربية الإسلامية، التي مرت بمراحل تطور تجسدت في حركات واتجاهات تصحيحية ظهرت في عصر النهضة، الذي يرمز إلى محاولات جادة وجريئة تحاول تقديم مقاربات جديدة، تعطي صورة حقيقية للإسلام وتصوراتهِ الصحيحة، وفي نفس الوقت تنظر إلى البون الشاسع بين الشرق والغرب، أو بين واقع المسلمين وما يشهده من تخلف وانحطاط، وإلى ما وصل إليه الغرب من حداثة وتقدم وازدهار. ومن بين هذه الحركات الفكرية، نجد حركة الإصلاح كأهم حركة أفرزتها النهضة العربية، وهي بمثابة حركة تجديد وتحديث للفكر الإسلامي، نشأت نتيجة احتكاك المسلمين بالغرب وتأثرهم بهم، وفي نفس الوقت إطلاعهم إلى ما آلت إليه المجتمعات الإسلامية آنذاك، وإدراكهم مدى الفرق الشاسع بين التقدم العلمي والاقتصادي عند الغرب وحجم التأخر والتراجع عند المسلمين، ومن هنا تبرز المسلمة التي انطلق منها رواد هذه النهضة المتمثلة في البحث عن أسباب تخلفنا نحن وتقدم الآخر الممثل في الغرب، ومحاولة فهم ما يجري في أوروبا والتعرف على مشروعات النهضة جراً ما شاهده من حداثة غربية في جميع المجالات، وفي نفس الوقت إدراكهم بضرورة العودة إلى الدين الإسلامي كمنهج وعقيدة حياة في حل المشكلات التي تواجه واقعهم المتخلف لذلك اعتمدوا على تعاليم دينهم وثقافتهم العربية والموروث المحلي وكذا الثقافة الغربية الحديثة.

ولعل من أبرز رواد هذه الحركة في بداية القرن التاسع عشر ميلادي، ممن اهتموا بالإصلاح والتجديد الديني والتربوي والسياسي، واشتغلوا على مفاهيم العروبة والوحدة الإسلامية، التقدم والتطور وعوامل النهوض، نجد جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده اللذان يمثلان إشعاعاً فكرياً وثقافياً، حاولوا تقديم منهاج جديد يتماشى مع روح الحداثة ومتطلبات العصر، ويأخذ في حسبانهِ أبعاد الأصالة بمبادئها ومكوناتها الثابتة والمشكلة للهوية الإسلامية، وكذا مفاهيم المعاصرة ومتطلباتها. وبالتالي في هذا المقال نحاول تتبع أثر التجديد في الخطاب العربي الإسلامي، ونتساءل عن ملامح هذا التجديد الديني المتمثل في المشروع النهضوي عند مفكري الإصلاح ؟.

ومن هذا المنطلق يأتي هذا البحث، كمحاولة لإلقاء الضوء على فكرة التجديد الديني وأبرز محاولاته في عصر النهضة، ولبورة هذا التصور انطلقنا من الأسئلة التالية التي تشكل في الوقت ذاته موجبات لهذه الدراسة:

- ماهية التجديد الديني (مفهومه وعلاقته بالخطاب الديني).

- المشروع الإصلاحي عند رواد عصر النهضة (جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده).

- حتمية تجديد الخطاب الديني بين جدل الأصالة والمعاصرة.

أهداف البحث : ترمي هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على مفهوم التجديد في الخطاب الديني، وكل ما يحمله من دلالات يمكن أن تساهم في تجديد وتحديث الفكر الإسلامي، من خلال مفاهيم الإصلاح الإحياء والنهضة، باعتبار التجديد حركة مستمرة يمكن للدين الثابت من أن يستوعب حركية الحياة المتجددة، لذلك أصبح مفهوم التجديد من المفاهيم الأساسية التي انبنى عليها الفكر الإسلامي، وقد أكد عليها النبي محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته النبوية الشريفة، فالتجديد مستمر لأن كل عصر لا يخلو من فقهاء ومجتهدين مجددين لفهم هذا الدين في تفاعله المستمر مع اختلاف الزمان والمكان، وهو ما لمسناه عند علماء عصر النهضة ودعاة الإصلاح، مع كل من جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده الذين أحدثوا نهضة فكرية ودعوا إلى ضرورة تعميق مشروع الإصلاح والتجديد، في جميع المجالات الدينية بما فيها علم العقيدة وأصول الفقه، وإصلاح كذلك في المجال التربوي، والسياسي والاجتماعي.

منهجية البحث: ولغرض التحقق من صحة فرضية البحث، ومحاولة الوصول إلى الاستنتاجات المرجوة اعتمدنا على المنهج الوصفي والتحليلي.

أولاً: في ماهية التجديد الديني.

1- مفهوم التجديد:

يعتبر مفهوم التجديد من أكثر المفاهيم المتداولة في الساحة الثقافية العربية والإسلامية، وقد تنازعت عدة تيارات فكرية ودينية، حول المفهوم ذاته، فيما يخص دلالاته اللغوية وحمولته الفكرية، لأن التأصيل الفلسفي لكلمة التجديد، يرتبط في أساسه بالتأصيل النظري والعملي، أو بمعنى آخر أن التجديد يتقاطع مع مفهومي الأصالة والتراث المحلي ومفاهيم عملية من قبيل الإصلاح، التحديث، النهضة والتطور.

وجاء في اللغة العربية أن لفظ التجديد، جاءت من أصل الفعل تجدد أي صار جديداً، أو بمعنى "وجود شئ كان على حالة ما، ثم طرأ عليه ما غيره وأبلاه، فإذا أعيد إلى مثل حالته الأولى التي كان عليها قبل أن يصيبه البلى والتغير كان ذلك جديداً بلي"¹ وفي الاصطلاح يشير التجديد على أنه "إنشاء شئ جديد أو تبديل شئ قديم وهو مادي كتجديد الملابس والمسكن، أو معنوي كتجديد مناهج التفكير وطرق التعليم"².

وقد استعمل التجديد بشكل واسع في الخطاب الديني، وكل ما تعلق بأصول الدين ونصوصه الثابتة ليشير إلى معاني الإصلاح والإحياء، أي بمعنى آخر تجديد علاقة المسلمين بالدين والتفاعل مع أصوله حتى يتسنى لهم التعامل مع متغيرات العصر، وهذا التجديد لا يعني تغيير وتحريف في أصول الدين أو الشرع ذاته عند الفقهاء، بقدر ما هو إحياء الفهم السليم للنصوص الدين الأصلية، بمعنى آخر "هو حفظ نصوص الدين الأصلية صحيحة نقية، ونقل المعاني الصحيحة للنصوص وإحياء الفهم السليم لها، والسعي للتقريب بين واقع المجتمع المسلم في كل عصر، وبين المجتمع النموذجي الذي أنشأه الرسول صلى الله عليه وسلم وإحياء مناهج ذلك المجتمع في فهم النصوص والاجتهاد، كما يشمل تصحيح الانحرافات النظرية والفكرية والعلمية، وتنقية المجتمع من شوائبها"³. كما تجدر الإشارة إلى انه في القرآن الكريم، استخدم لفظ التجديد في الحديث عن البعث بعد الموت، كما وردت كذلك كلمة تجديد في السنة النبوية الشريفة عن

أبي هريرة -رضي الله عنه - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد دينها"⁴، والمصطلح الوارد في هذا الحديث الشريف دلالة على استمرارية عملية التجديد من فترة زمنية إلى أخرى، أو من عصر إلى عصر آخر، وهو يخص بطبيعة الحال حملة العلم من فقهاء ومتكلمين ومفكرين في كل عصر، وهذا يدل على أن استعمال كلمة التجديد لم يكن استعمالاً عشوائياً، بل كان لأسباب عملية بحثه تخص مختلف البنى المكونة لطبيعة الأشياء والمفاهيم، وفي نفس الوقت لعلاقة الدين بالتدين والممارسات الدينية، التي مع مرور الوقت أصبحت قديمة أو طرا عليها التغير والاختلاف عما كانت عليه في الأول، لأن القديم يطرأ عليه التجديد من عدة جوانب، إما ان تكون بعض معالمه الأساسية قد طمست، أو اقتطعت منه أشياء فنقصت بذلك مكوناته، وإما أن يتعرض لحذف أو زيادة فتختلف صورته " التجديد في تلك الأحوال يكون بإظهار ما طمس، وإعادة ما نزع ونقص، وإزالة ما أضيف وألحق"⁵ وهذا يكون التجديد الديني في الدين حماية له، والمحافظة عليه وتنقيته والعمل على إحياءه قدر الإمكان.

2-التجديد وعلاقته بالخطاب الديني :

إن المتأمل لقضايا الفكر الإسلامي سيجد حتماً، أن قضية التجديد قضية قديمة في الحضارة العربية الإسلامية وقد ظهرت بشكل واسع في الخطاب الديني الموجه للمسلمين كافة، حيث ارتبطت بمبدولات عديدة أهمها مصطلح الاجتهاد الذي اقترن استعماله في ميدان الفقه وأصوله، كما ارتبط بمصطلح الإحياء من قبل الفقيه أبي حامد الغزالي*، من خلال كتابه " إحياء علوم الدين " وعلى هذا الأساس يصبح " تجديد الدين يعني إحياء وبعث ما أندرس منه وتخليصه من البدع والمحدثات وتنزيله على واقع الحياة ومستجداتها " ⁶. وعلى هذا الأساس نجد ان كلمة التجديد، وكذا الإصلاح والتحديث قد استعملت لدواعي فرضتها طبيعة الثقافة الفكرية والإسلامية للحضارة العربية، وقد أعيد توظيفها في العصر الحديث بشكل واسع نظرا للسياق التاريخي والمعرفي، الذي تزامن مع هذه الحقبة الزمنية التي مرت بها الحضارة العربية الإسلامية وكذا الشرقية، حقبة اتسمت بالركود والانحسار والجمود الفكري بداية من القرن 18م، والتشبث بموروثها الثقافي والفكري، دون أن ننسى التخلف العلمي والاجتماعي والاقتصادي وخاصة السياسي، جراء عدة عوامل منها الاستعمار الحديث، أثرت بشكل كبير ومباشر على الأمة الإسلامية سواء كان حاضرها أو مستقبلها.

هذا الوضع المأزوم، عجل بميلاد عصر جديد، وهو ما يعرف بعصر النهضة مع بداية القرن 19م "والذي يشير إلى تلك الجهود الفكرية والسياسية، التي تهدف إلى نقل العالم العربي من حالة الجمود والتخلف، إلى حالة أفضل مما عليه جراء الانغلاق الفكري والسياسي، والتشبث بأصالة دينية منغلقة، وتأثر بالآخر " ⁷ كما أن هذا العصر أدرك أن التجديد أصبح أمرا واقعا وملحا، خاصة وأن ما يحرك عقول العرب وغير العرب من المسلمين هو الخطاب الديني الموجه إلى جموع المؤمنين والمسلمين، هذا العصر أصبح يمثل حركة فكرية في طابع ثوري تدعوا إلى الاستفاقة والنهوض والأخذ بأسباب التغير من خلال مفاهيم التجديد، الإصلاح، التقدم، التغير، النهضة في كل المجالات التي لها علاقة بمختلف البنى المعرفية المشكلة للهوية الثقافية العربية الإسلامية، وفي نفس الوقت المحافظة على ثوابت الأمة وأصولها الممتدة منذ العصر الإسلامي الكلاسيكي أيام البعثة المحمدية للرسول صلى الله عليه وسلم، والتابعين من بعده الصحابة رضوان الله عليهم، والخلفاء الراشدون وسلفهم الصالح المتمسكون بكتاب الله والسنة النبوية الشريفة " فليس التجديد من ثم خروجا ولا تجاوزا للدين، ولكنه إستجابة لحاجات التدين في عصر متجدد وظروف حادثة " ⁸

دون أن ننسى أن ملامح التجديد للخطاب الديني، الذي عرفته الحضارة العربية الإسلامية طرح علاقته مع حضارة الغرب الحديث وتأثره الشديد بها، وانهار بما عرفته هذه الأخيرة " إن ظهور حركة تنويرية في الشرق العربي، وبعث الآداب العربية واتساع المزاج المعادي للإقطاع، وظهور ونمو الوعي القومي، والدعوة إلى الاستقلال السياسي، ونشوء حركة الإصلاح الديني الإسلامي والتأثير القومي والحاسم من قبل الثقافة الغربية على الثقافة العربية، أجمع الباحثون على اعتبار هذا كله نهضة عربية تبدأ من القرن 19م.⁹ هذا المشروع التنويري الحداثي حمل الغرب وأوروبا بأكملها، من غيابات الجهل والتخلف إلى أروقة التقدم والتطور والحداثة، مثل الثورات الدينية كثورة مارتن لوتر (1483-1546) التي تزامنت مع عصر النهضة في أوروبا، وظهور تحولات نوعية في الفكر والتفكير وإعلانها من شأن العقل، وظهور نظم اجتماعية مكونة لمفهوم المدينة الحديثة، وفي الاقتصاد التحول إلى النظام الرأسمالي الحر، والاهتمام بالعلوم الطبيعية والتجريبية، تحت راية العلم كدين جديد للإنسانية، دون أن ننسى الثورات السياسية على سلطة الكنيسة مثل الثورة الفرنسية 1789م، وما تلاها من ثورات في أوروبا.

هذا التأثير الوافد من الغرب، كان بمثابة المصدر والمعين الذي حرك المصلحين والمفكرين إلى ضرورة تجديد الخطاب الديني، الذي لا يزال على عهده الأول والقابع خلف ستار الفقهاء من الأصوليين والسلفية الوهابية، والمتأثرين بسياسية الخلفاء الأمويين والعباسيين، كما أن الخطاب الإسلامي في هذه الفترة، لم يفرق بين الدين والتدين، لذلك دعت ضرورة التجديد والإصلاح الديني إلى التحرر من قيود سلطة الدولة، والتقاليد الدينية الموروثة والتي لا تتماشى مع متطلبات العصر آنذاك.

كما يذكر المؤرخون أن حملة نابليون بونابرت على مصر سنة 1789م، كانت أولى بوادر انفتاح العالم العربي على الحضارة الغربية، فلم تكن حملة عسكرية فقط، بل كانت تحمل معها رجال العلم والصناعة، والذي سمحت لهم كذلك بالتعرف إلى ما وصلت إليه الحضارة الغربية، كما سمحت بعض الحملات التبشيرية إلى التعريف أكثر بالمنجز الغربي من تفكير علمي واكتشافات أخرى، وكذا الترويج لمختلف العلوم والفنون التي وصلوا غليها.

ضف إلى ذلك أن هذه الفترة في مصر، في عهد محمد علي باشا شهدت إرسال بعثات علمية إلى الخارج، إلى كل من فرنسا وإنجلترا سنة 1813م، قصد التعرف على مجمل العلوم وكذا نقل الخبرات، ولم تكن بعثات للإعجاب والترفيه فقط، بقدر ما هي بعثات للاحتكاك والتعرف على ثقافة الغرب وتقديمهم الفكري والعلمي، وكان رفاعة رافع الطهطاوي قد ترأس بعثة علمية كبيرة ومنظمة إلى فرنسا والذي من

خلالها " استطاع أن يقوم بمشاهدات دقيقة للعالم الحديث والقديم معا ويقتبس معرفة واسعة، عن المؤسسات والعادات السائدة في ذلك المجتمع الأعظم، والأكثر ازدهارا في زمانه " ¹⁰. وقد لخص مضمون زيارته وإقامته بفرنسا في كتاب اخذ شهرة واسعة بعنوان - تخلص الإبريز إلى تليخيص باريز -

كل هذه المعطيات ساعدت على ضرورة تجديد الخطاب الديني، والتأسيس لفكر إصلاحي متجدد في أواسط القرن 19م، حيث قام فيه رجال مصلحون بدق ناقوس الخطر، وحذروا ملوكهم وحكامهم بالوضع الخطير الذي باتت تعيشه الأمة الإسلامية، والدعوة إلى ضرورة التعجيل بالإصلاح وتبني مشروع إصلاحي عرف بالنهضة العربية.

3- مجالات التجديد:

إن التجديد في الفكر الإسلامي، اولوية تفرضها حياة الناس ككل، وتحتمها طبيعة هذا الدين، لذلك كان من الضروري فتح باب الاجتهاد والتفسير والتأويل، قصد ربط نصوص القرآن الثابت بواقع المسلمين المتحول والمتغير بحكم الظروف والأسباب المشكلة لواقع الأمة الإسلامية، لذلك يرى الكثير من المفكرين والعلماء حتمية ذلك " إن حفظنا نحن من الدين يحتاج إلى تجديد، وليس ذلك التجديد هو ان نبعث فيه روحا عاطفية، ذلك التجديد وسيلته التربية الدينية " ¹¹، كما يجب الإشارة إلى ان الدين تشريع سماوي لا مكان فيه للتجديد، وإنما الذي يتجدد مجالاته المتكونة منه والتي يتضمنها الفكر الإسلامي، لأن هذه المجالات هس تعبير عن تفاعل بين عقل المسلمين واحكام الدين الأزلية، ومن بين هذه المجالات :

التجديد في علم العقيدة : ويكمن في حماية العقيدة من الأضاليل والشبهات، وكل ما علق بأذهان الناس عليها " أي الحفاظ على نصوص الدين الاصلية، صحيحة ونقية " ¹² بمعنى إعادة إحياء ما اندرس من الدين، وكذلك تجديد طريقة إيصال العقيدة في عقول الناس وفي سلوكهم وافعالهم " أن نرده إلى الأصول الاولى من القرآن والسنة، مستنيرين ومسترشدين بتقاليدنا وتراثنا، وتجارب سلفنا الصالح الذي طبق الإسلام تطبيقا معينا وهدانا بعض الهداية " ¹³

التجديد في علم التفسير: ويكون ذلك بإعادة إحياء التفسير على اسسه وقواعده الصحيحة، في فهم كلام الله تعالى، فالنص القرآني ليس كله متاح للفهم " أي نقل المعاني الصحيحة للنصوص وإحياء الفهم السليم " ¹⁴

التجديد في علم الفقه : بمعنى الاجتهاد والنظر في مسائل فقهية لم يدركها المسلمين ، والتي لها علاقة مباشرة بواقع الحياة ، لان هناك العديد من المسائل المستجدة تحتاج إلى بحث ونظر ، والتعرف على حكم الله عز وجل في مسائل فقهية بمعنى " الاجتهاد في الامور المستجدة ، وإيجاد الحلول لها " ¹⁵

التجديد في علم السنة : أي كل ما يتعلق بالسنة النبوية الشريفة ، وما جاءت به من أحاديث شريفة بمعنى إحياء عملية تخريج الأحاديث ، وبيان الصحيح منها والضعيف ، وكذلك تخريج مالم يخرج من كتب الحديث .

ثانيا : المشروع الإصلاحى عند رواد عصر النهضة (جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده)

في الوقت الذي كانت فيه الدول الإسلامية تعيش مرحلة ضعف وتخلف لم تعده من قبل ، مثلها مثل الدولة العثمانية آنذاك ، وتأثرهم الشديد بحضارة الغرب او الوافد الجديد ، الذي شكل خطر على هوية المجتمع العربي الإسلامي ، الذي شرع في بلوغ أهدافه ، وتوسيع أطماعه الاستعمارية

برزت في هذه الفترة ، دعوات جادة تهدف إلى وحدة العالم الإسلامي ، من هذه الصدمة الجارفة في مواجهة الخطر الأوربي ، وهي دعوات تدعوا إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي ، وإلى إيقاظ العقل العربي من سباته العميق جراء صدمة الحداثة ، من قبل رواد حركة الإصلاح الديني الذين حاولوا إيجاد السبل التي تمكن العرب الاستيعاب من النموذج الحضاري الغربي ، ، وفي نفس الوقت فهم ما يجري من اختلاف بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية ، وتأكيدهم على ان

الإسلام كدين ومنهج لا يتعارض كلية مع ما قدمته الحداثة الغربية من تقدم علمي ونزعة إنسانية جديدة ، وتغير في أنماط السلوك وأشكال التفكير وغيرها من الإنجازات " لقد أصبح البرهان على عدم التعارض بين الإسلام كتراث عربي ديني ، وبين التقدم كقانون للحضارة ونموذج غربي في الواقع ، محور عمل رجال النهضة من الإسلاميين ، وكانت تهدف هذه المهمة التي حاول رواد الإصلاح الديني القيام بها ، هي التوفيق بين الدين الإسلامي ومتطلبات العصر " ¹⁶ ، هذه الدعوة جاءت مع شخصية تاريخية وفريدة ، تركت بصماتها على الحركات الإسلامية التي ظهرت في العالم الإسلامي الحديث منذ نهاية القرن 19م ، وهي شخصية جمال الدين الأفغانى وتبعه فيما بعد تلميذه محمد عبده .

1-التجديد عند جمال الدين الأفغانى:

يعتبر جمال الدين الأفغاني (1838/1897) من أشهر رواد الفكر الإسلامي في القرن 19م، كما أنه رائد التحديث في الفكر الإسلامي، ولد في بلاد أفغانستان وكان لعائلته وأبوه ذو مكانة في بلده نشأ وترعرع على حب العلم، فدرس القرآن والفقه واللغة، وعلوم المنطق وكذا الرياضيات والفلسفة، قام بعدة رحلات إلى الأقطار العربية، منها الأستانة أيام الخلافة العثمانية، وإلى مصر الذي كان له دور كبير في حركة الفكر وخاصة الفكر السياسي، وقف في وجه الخديوي إسماعيل وعارض سياساته حين أخضع البلاد لإنجلترا، كما رحل إلى فرنسا، وفيها أسس جمعية العروة الوثقى مع محمد عبده، وبعدها أسس صحيفة أصبحت تحمل ذات الاسم، وتوفي سنة 1897 بالأستانة.

هذه السيرة الذاتية والفكرية، جعلت منه من أبرز الأسماء التي ميزت العصر الحديث في الفكر الإسلامي العربي، من خلال إسهاماته الفكرية والدينية والثقافية، وجهوده المعتبرة في إعادة تجديد وإصلاح الخطاب الإسلامي، إذ ينتهي إلى التيار التجديدي والإصلاحي الذي حاول أن يهتم بالواقع الإسلامي وما آل إليه من وضع خطير، دعت الضرورة إلى إعطاء فهم جديد للدين الإسلامي والدفع بهذه الأمة إلى النهوض والأخذ بأسباب التقدم والتطور " وقد حظيت دعوته بانتشار واسع في أرجاء العالمين الإسلامي والعربي، وتابعه في النهج والأفكار والتوجهات، تلميذه الإمام محمد عبده " ¹⁷ وقد كانت أفكاره تهدف مباشرة إلى التغيير، واشتغل كثيرا بمسألة الحكام والملوك الذين يستبدون في حكمهم، ويشرفون على مقاليد الحكم في تسيير الشأن العام. وبمسألة الاستعمار الذي كان يراه السبب المباشر في تخلف المسلمين لذلك " اتخذ من تجديد الإسلام بعقل الفيلسوف أداة لتجديد حياة الشرق والشرقيين، واتخذ من الثورة سبيلا تصل الجماهير عن طريقه إلى مواقع السلطة والسلطان " ¹⁸، لذلك تنوعت جهوده في مسار الإصلاح والتجديد بين ما هو سياسي وتعليمي وديني واجتماعي، وكان يرى أن " ضرورة الإصلاح الاجتماعي والسياسي يجب أن تسبقها عملية الإصلاح الديني، إذ بين الإصلاح السياسي والاجتماعي والإصلاح الديني، ترابط تاما كالترايط بين انحطاط الدولة وانحطاط الدين. " ¹⁹

في المجال الديني: حاول أن يحرر الإسلام من البدع والخرافات، وطالب بتنقيته من الشوائب والإضافات التي شوهته، واعتبر أن الإسلام دين عمل وافتتاح، وليس دين جمود وانغلاق، فدعا إلى ضرورة الرجوع إلى الدين الإسلامي وفهمه فهما صحيحا، من خلال فتح باب الاجتهاد، وممارسة الفكر التجديدي التحرري التصحيحي، والإعلاء من شأن العقل، في تدبر القضايا ومجابهة مشكلات الواقع العربي " وقف الأفغاني الشطر الأكبر من حياته في الدفاع عن البلدان الإسلامية المهددة بخطر التوسع

الأوربي، إلا أن تفكيره لم يقتصر على السياسية فالقضية الأساسية لديه، القضية التي قولبت تفكيره، لم تكن التساؤل عن كيفية جعل البلدان الإسلامية قوية وناجحة بقدر ما كان التساؤل عن كيفية إقناع المسلمين بأن عليهم أن يفهموا دينهم الفهم الصحيح، وان يعيشوا وفقا لتعاليمه، فلو أنهم فعلوا لغدت بلادهم قوية حتما²⁰

كما كان ينظر إلى التعليم الديني من قسمين، وجب تعليمهما قسم العبادات (أصول الدين والفقه، والشرح والتفسير) وقسم آخر للمعاملات وهو ما يقتصر على العلوم الدنيوية حيث يدعو الأفغاني بضرورة الاجتهاد باعتباره ضرورة حيوية لتجديد حياة الأمة ومواكبة تطوراتها.

في المجال السياسي: كان الأفغاني ذو طابع ثوري تحرري، وكان إيمانه بالحرية والعمل على مواجهة استبداد الحكام وظلم الاستعمار، عقيدة راسخة في تفكيره، فكانت أفكاره التجديدية تقلق الملوك والحكام لذلك سعوا إلى التخلص منه من أجل مصالحهم، لأنه كان يرى أن سبب تخلف الأمة الإسلامية راجع إلى أولى الأمر، فالأفغاني أثناء مكوثه في مصر حمل معه ثورة سياسية واعتبرها الطريق الوحيد لتحرير الفكر السياسي، والعمل السياسي ضد هذه الأنظمة الفردية والاستبدادية، وهو ما وقف عليه في إقامته بمصر مع محمد علي أبناؤه.

وقد دعا في هذا الشأن إلى قيام جامعة إسلامية، تهتم بأحوال هذه الأمة، سياسيا واجتماعيا وتنمويا والدفع بها إلى ركب الأمم المتقدمة، كما انشأ مجلة عربية وهي مجلة " العروى الوثقى " هو وتلميذه الأبرز محمد عبده، والذي كان ساعده الأيمن فيما يقوم بصياغة المواضيع، وتحريرها والإشراف عليها، ومن أهداف هذه المجلة :

- أنها كانت ترمي إلى غرس عقيدة الأمل، والتمسك بعقيدة الإسلام التي كان عليها أسلافنا. - الدفاع عن الإسلام وحضارته من الغزو الثقافي والفكري، والاقتصادي الذي قيدهم واعتبر أن المسلمين متخلفين ولا يستطيعون خلق أسباب التقدم وذلك لانغلاقهم وتمسكهم بأصول دينهم - مجلة العروة الوثقى سمحت بتمتين أواصر الأخوة بين الأمم الإسلامية، وتقوية علاقاتهم وحمائيتهم من الآراء الخاطئة عن الإسلام التي تبناها من الثقافة الغربية، لذلك كان ينظر الأفغاني إلى الشعوب الإسلامية كتلة وواحدة متكاملة. أما في المجال الاجتماعي دعا الأفغاني إلى الرقي بالمجتمع والتصدي لمشاكل الفقر والجهل والعجز وضعف الإنسان، وفتح باب الاجتهاد ودعا إلى التوفيق بين العلم والإيمان، وكان يرى انه لا خلاف بين ما جاء في القرآن والحقائق العلمية

حيث يقول " عم الجهل وتفشى الجمود في كثير من المتردين برداء العلماء، حتى تخوضوا على القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة، والقرآن برئ مما يقولون " ²¹

2-الإمام محمد عبده وإسهاماته الإصلاحية :

يعد رمز من الرموز الدعوة إلى التجديد والمعاصرة، وقد برزت أفكاره إلى العلن عندما التقى مع الإمام جمالا الدين الأفغاني، وأصبح تلميذه الذي لايفارقه، فكون معه علاقة قوية : لقد كان تلميذه ومعاونه والمقتفي أثره عن كتب، ولكن لم يكن طيلة حياته تلميذا للأفغاني...فقد كتب له ان يكون مفكرا نظاميا أكثر من معلمه " ²². ولد عام 1849 في قرية على ضفاف الدلتا المصرية، من عائلة تنتمي إلى طبقة العائلات ذات المكانة المحلية، التي تتصف بالعلم والتقوى، وحسب المؤرخ ألبرت حوراني، عند بلوغ الإمام 13 سنة من عمره، دخل الجامع الأحمدى في طنطا، الذي كان أعظم مركز للثقافة الدينية في مصر بعد الأزهر، لكن بعد فترة لم يتقبل طريقة التدريس المتبعة والقائمة على استظهار الشروح على النصوص القديمة، لكن بعد التفائه بالإمام الأفغاني والاتصال به الدائم، فقد استفاد منه وعلمه حقيقة الإيمان فكتب العقيدة والنحو " ولم أجد إماما يرشدني، إلى ما وجهت إليه نفسي، إلا ذاك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام، من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد، وهو مفتاح سعادي " ²³، ومن هنا تجلت إسهاماته الإصلاحية خاصة وانه نشأ في مرحلة تاريخية اتسعت فيها الهوة بين الشرق والغرب، وقد زادت الأوضاع الاقتصادية أكثر سوءا، مع انتشار الجهل والتخلف، وكثرة البدع والخرافات.

في مجال التربية والتعليم : دعا إلى ضرورة إصلاح المناهج التعليمية التي أصبحت لا تتماشى مع مقتضيات العصر" والتحرر الفكري من الجمود والتقليد والرجعية الدينية، وإحياء الدراسات الفلسفية الممزوجة بالإنبيات، واحداث ثورة فكرية تغربل بها موروثاتنا الدينية عن الاولين، وخصوصا أهل قرون التخلف والركاكة والانحطاط " ²⁴ وهو ما وقف عليه في مسيرته التعليمية، حيث شهدت فترته عدم انسجام العلوم الشرعية مع غاياتها ومقاصدها، ولم تكن هناك اجتهادات تتماشى مع متطلبات وقضايا العصر وعلى هذا الأساس ظهرت جهوده الإصلاحية والتجديدية.

في المجال الديني: حرر المؤسسات الدينية من بعض رجال الدين الذين كانوا عقبة في وجه التجديد والإصلاح والبحث العلمي، وكان يرى أن الخطاب الديني أصبح يشبه إلى حد ما خطاب المؤسسة الدينية المسيحية، لذلك دعا إلى التجديد في التعامل مع القرآن، كما واجه الإمام محمد عبده خطر انقسام

المجتمعات الإسلامية إلى طائفتين الأولى تسودها شرائع الإسلام ومبادئه الثابتة، والطائفة الثانية تسيطر عليها المبادئ المستمدة بالاستنباط العقلي وهي نزعة علمانية تظهر في مجتمع يتعارض معا إطلاقا.

كذلك إعلاؤه من شأن العقل، والاعتماد عليه في البحث والتحليل، خاصة فيما يتوارثه الناس في تلك المرحلة الزمنية من مسلمات وحقائق لم يثبتها وحي ولا علم، ليأتي دور الاجتهاد العقلي من خلال ما جاء به القرآن الكريم.

على المستوى السياسي والاجتماعي: انطلق تفكيره من قضية الانحطاط الداخلي والحاجة إلى البعث الذاتي " كان يشعر كالأفغاني، بوجود نوع من الانحطاط الخاص بالمجتمعات الإسلامية " ²⁵ لذلك دعا إلى تغيير الأوضاع السياسية، وهنا تظهر إسهاماته في مجال القانون حيث دعا إلى فتح باب للدراسات السياسية والشرعية، حيث يظهر تفكيره في ان المجتمع لكي يكون صالحا من الواجهة الخلفية، عليه أن يتقيد بنوع ما من القوانين، كما نظر في طبيعة الحكم في الإسلام وقال انه لا يوجد للحاكم سلطة دينية أي حق إلهي أو ما شابه ذلك من البدع، وأكد في إصلاحاته السياسية على وجوب إقامة الشرع والعدل بالقوة وأكد على ضرورة تنصيب الحاكم ومحاسبته أو عزله.

هذه إذن محاولات محمد عبده الإصلاحية والتجديدية التي لا زال أثرها إلى حد اليوم على واقع الأمة العربية " كان هدف محمد عبده، في جميع أعماله وكتابات في أواخر أيامه، سد الثغرة القائمة في المجتمع الإسلامي، بغية تقوية جذوره الأخلاقية، ولبلوغ هذا الهدف رسم طريقا واحدة هي عدم الرجوع إلى الماضي وتوقيف مجرى التطور، الذي بدأه محمد علي، بل الاعتراف بالحاجة إلى التغيير وربط هذا التغيير بمبادئ الإسلام " ²⁶ وهي ابرز ملاحم التجديد التي أبداه الشيخ طوال حياته، حيث يؤكد الدكتور محمد عمارة أن الأفغاني إذا كان تفكيره ذو طابع ثوري، أي كان ثوريا يرى في الثورة الوسيلة الأنسب في بلوغ الغاية لشعوب الشرق في ذلك الحين، فإن الأستاذ " كان إصلاحيا يرى ان التدرج في الإصلاح، هو الطريق الأقوم والأحسن في تحقيق هذه الغاية...إن التربية والتعليم هي السبيل الوحيد لبلوغ غاية الشرق في التحرر الفكري والتحرر السياسي " ²⁷، وهذا ما جعل من الإمام محمد عبده مصلحا متميزا في عصره، ومختلفا في تفكيره الرامي إلى نهضة عربية، منفتحة على فكر إسلامي متجدد.

ثالثا : حتمية تجديد الخطاب الديني بين الأصالة والمعاصرة

إن الحديث عن ضرورة تجديد الخطاب الديني، أو حاجة الأمة العربية إلى خطاب إسلامي جديد قد تبلور بشكل أوسع وأعمق، مع مدارس الإحياء والتجديد في عصر النهضة الإسلامية الحديثة في منتصف القرن 19م، مع مدرسة جمال الدين الأفغاني (1838/1897) والإمام محمد عبده (1849/1905) الذي يعتبر بمثابة العقل الذي هندس مشروعها التجديدي، والذي كان يرمي إلى تجديد الخطاب الديني، ومحاولة تحديثه بما يتناسب وجدل الأصالة والمعاصرة، أي بين تيار أصولي منغمس في عقيدته وأصوله الثابتة، وتيار يدعو إلى الانفتاح ومسايرة قضايا الواقع ومعاصرتها لذلك تجسد هذا المروغ عند رواد هذه المدرسة "لقد تبلور في تراث هذه المدرسة ما يمكن أن نسميه معالم أساسية لمشروع نهضوي إسلامي، هو وسط متميز عن مقولات أهل الجمود والتقليد، وعن مقولات أهل الحداثة والتغريب، وهو مشروع أصولي نابع من الأصول الإسلامية"²⁸ إذ تزامنت فترتهم التاريخية مع المشروع الحداثي الغربي الذي شهدته أوروبا، التي عرفت فيه ثورة حقيقية ضد كل أشكال التفكير والقيم الموروثة وعلى كافة أساليب الاستبداد والطغيان، وضد الفكر المسيحي السكولائي، وكل مظاهر الانحطاط والتخلف الذي عاشته أوروبا، هذه التداعيات كلها أثرت بشكل كبير على قيام هذه النهضة العربية، وضرورة الإصلاح الديني وخاصة وأن الخطاب الديني آنذاك كان هو المسيطر على عقول المسلمين، الذي قيد حركة العقل والتفكير وشل عملياته وحركية الانفتاح الرامية إلى تطور شعوب العالم العربي والإسلامي، لأن هذا التجديد الذي نادى به دعاة الإصلاح كان يرمي إلى :

1- ضرورة تخطي مرحلة الضعف والتبعية التي أصابت الحضارة العربية الإسلامية، التي كانت أشد الانتماء إلى الثقافة والإمبريالية الغربية نتيجة التبعية المفرطة والمطلقة للآخر، الذي حجب كل رؤية للتقدم والتطور " وإذا كان مأزق التقدم العربي مأزق قواه الاجتماعية، التي لم تتحول بعد إلى قوى قادرة على كسر جمودها والإفلات من تبعية أوطانها للإمبريالية، فإن ممارساتها وأشكال وعمها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، يجب أن تنصب قبل كل شيء على التحرر من التبعية"²⁹

2- ضرورة تجديد الخطاب الديني، تعود بالأساس إلى الحالة التي تعيشها مجتمعاتنا الإسلامية والذي يطرح منطق العلاقة القائمة بين الشرق والغرب وتأثر الأول بالثاني، بمعنى آخر لماذا تخلف الشرق العربي عن السير في طريق التقدم الرأسمالي، وهنا يصبح التجديد فيما يرى الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر " خاصة لازمة من خواص دين الإسلام، نبه عليه النبي

صلى الله عليه وسلم في قوله الشريف " عن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد

لها دينها " وهذا هو دليل النقل على وجوب التجديد في الدين "³⁰

3- ضرورة إعادة قراءة الخطاب الديني وتجديده كان نتيجة الأزمة الحضارية التي مرت بها المنطقة العربية، والتي أفرزت حالة من الجمود والركود السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني، التي كانت سائدة مع مطلع القرن 19م، وخلق نوع من الانتكاسة العربية، أفقدتها مرجعيتها وصوابها ورؤيتها إلى المستقبل، وعجزها في البحث عن أسباب التقدم والتطور

4- حتمية تجديد الخطاب الديني، كان وراءها عوامل وأسباب تدفع بضرورة الجدية في تجديد هذا الخطاب وهذا الأمر راجع على أمرين أساسيين " الفهم الخاطئ لنصوص الكتاب والسنة، وتصدر أشباه المثقفين للفتوى... وظهور خطاب ديني متشدد يعتمد التكفير منهجا له، وعقيدة وسلوكا يسعى إلى نشره، فضلا عن الانشغال بالدفاع عن الإسلام دون محاولة إنتاج فكر ديني جديد أو حتى إعادة الأفكار الأساسية للدين للظهور مرة أخرى " ³¹، والأمر الثاني تمثل في قيام دعوات إصلاحية تنادي بوجوب تلاؤم الأحكام الشرعية مع خصوصية هذا العصر " أن نربط بين الفكر الإسلامي، وبين الواقع فالدعاة للإسلام عليهم أن يكتبوا كتابات للمشكلات العملية الواقعية، ولا يتحدثون عن الأمور العامة النظرية وان نحقق الإسلام في واقع الحياة " ³².

خاتمة:

بعد استعراضنا لمظاهر التجديد وعلاقته بالخطاب الديني، وإمكانية تطويره وتحديثه من قبل علماء ومفكري عصر النهضة، أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وما حملوه من مشروع نهضوي، حاولوا من خلاله الخروج بالأمة الإسلامية من أزمتها الحضارية، والبلاء العظيم الذي ابتليت به، وهو بلاء التخلف والانحطاط في أواخر القرن 18م وبداية القرن 19م، مقارنة بالبلاد الأوروبية التي عرفت تقدما وحضارة في جميع المجالات، وهو ما جعل العقل العربي يطرح سؤاله حول علاقة الأنا بالآخر، كما أن هذه الدراسة حاولنا من خلالها الوقوف على المشروع الحضاري وأهدافه المستقبلية التي حاول مفكري هذه الفترة الزمنية من تاريخ المسلمين رسمها من خلال التفكير في إصلاح وتحديث حال المسلمين، وتجاوز مأزق الانغماس في التراث والأصالة، ومحاولة التقرب إلى تجديد مجالات الحياة قصد مسايرة مقتضيات العصر ومعاصرتها، كما أن مشروع النهضة حاول أن يعطي تفكير جديد لمفهوم التجديد وآلياته ومجالاته، بمعنى مشروع حضاري يجمع بين الثوابت والمتغيرات ينطلق من الواقع ومكوناته السياسية والاجتماعية والثقافية، وخاصة التعليمية والتربوية وانتهوا إلى ضرورة بعث وإحياء هذه الأمة من جديد انطلاقا من الاهتمام بقيمها الدينية وإعادة تجديدها لا تحريفها.

كما لا ننسى انه رغم مرور أكثر من قرنين على بداية التفكير في هذه المسألة، لا تزال جهود المفكرين والعلماء قائمة، من أجل الوصول إلى حلول فكرية وسياسية، تحاول قراءة تراثنا الإسلامي وكيفية تحديثه والنهوض به، وما يمكن الخروج به من هذه الدراسة هو أن :

- التجديد كان ولا يزال من المفاهيم الأساسية التي انبنى عليها الفكر الإسلامي، وخير دليل على ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم أكد عليه في دعوته المباركة.

- التجديد وما يحمله من مدلولات، من قبيل التحديث والإحياء والإصلاح يمثل حركة مستمرة يسمح لنا بفهم الدين ومسايرته مع مقتضيات حركية الحياة ن بمعنى ان التجديد همزة وصل بين الدين كنص ثابت وكيفية إسقاطه مع حركية الحياة المتجددة، لأن الذي يتجدد انما هو الفكر الإسلامي في تفاعله مع عقل المسلمين.

- أن التجديد في الدين لا ينطوي على جانب العقيدة فقط، وإنما هو شامل يستمد أصوله من مبادئ الإسلام، ومن مقاصده وما استجد من علوم العصر.

- التجديد لم يقتصر على الجانب الديني، بل تم تجديد وإحياء الفكر الاجتماعي والسياسي والتربوي والاقتصادي، كما سمحت الحركة التجديدية الحديثة من التحرر من التعصب المذهبي.

ومع ذلك ما يزال سؤال النهضة مطروحا بشدة على العقل العربي والإسلامي، بل وتزداد محاولات الإجابة عليه تعقيدا بمرور الوقت وكان خير ما قدمه رواد عصر النهضة هي تلك المعالم الأساسية المتمثلة في الإصلاح والتجديد وكذا تحديث الفكر الإسلامي من خلال نقد ورفض الجمود والتقليد.

قائمة المراجع:

- 1 محمد أسامة عدنان. التجديد في الفكر الإسلامي. دار ابن الجوزي. ط1. السعودية 1424هـ. ص 16
- 2 جميل صليبا. المعجم الفلسفي دار الكتاب اللبناني. الجزء الأول. 1982 ص 242
- 3 عمر زقاي، تجديد الخطاب الديني، أطروحة دكتوراه، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر سنة 2012، ص 19
- 4 ابو داود، سنن أبي داود، ج 11، ص 385
- 5 محمد بن شاكر، تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، مكتبة الملك فهد، ط1، الرياض، سنة 2004، ص 12
- 6 محمد اسامة عدنان، التجديد في الفكر الإسلامي، دار ابن الجوزي، ط1، السعودية 1424هـ، ص 19.
- 7 www.alghad.com يوم 2023/02/19 الساعة 23 سا 24د
- 8 حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، دار البعث، ط1، الجزائر، سنة 1990. ص 41

- ⁹ أحمد برقايوي محاولة في قراءة عصر النهضة، ط2، الأهالي للطباعة، سوريا، سنة 1999، ص 22/21
- ¹⁰ ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت د ط، د س، ص 93
- ¹¹ حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، دار البعث، ط1، الجزائر، سنة 1999، ص 31
- ¹² محمد أسامة عدنان، التجديد في الفكر الإسلامي، دار ابن الجوزي، ط1، السعودية، السنة 1424هـ، ص 37
- ¹³ حسن الترابي، نفس المرجع، ص 31
- ¹⁴ محمد أسامة عدنان، نفس المرجع، ص 39
- ¹⁵ محمد أسامة عدنان، نفس المرجع، ص 40
- ¹⁶ رشيد مقدم، المشروع النهضوي عند رواد حركة الإصلاح الديني في عصر النهضة، مجلة قضايا تاريخية، العدد 2، سنة 2016
- ¹⁷ رشيد مقدم، المشروع النهضوي عند رواد حركة الإصلاح الديني في عصر النهضة، مجلة قضايا تاريخية، العدد 2، س 2016
- ¹⁸ محمد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، دار الشروق، ط1، مصر، سنة 1990، ص 41
- ¹⁹ أحمد برقايوي، محاولة في قراءة عصر النهضة، ط2، الأهالي للطبع، سوريا، س 1999، ص 61
- ²⁰ ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص 142
- ²¹ أحمد برقايوي، ص 62
- ²² ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص 163
- ²³ نفس المرجع، ص 163
- ²⁴ محمد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، دار الشروق، ط1، مصر، سنة 1990، ص 41
- ²⁵ ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص 169
- ²⁶ ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص 172-173
- ²⁷ محمد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، دار الشروق، ط1، مصر، سنة 1990، ص 41/42
- ²⁸ محمد عمارة، مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، ط1، سنة 2003م، ص 19.
- ²⁹ أحمد برقايوي، محاولة في قراءة عصر النهضة، ط2، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق سنة 1999، ص 11/10
- ³⁰ www.middle-east-online.com يوم 2018/10/22 الساعة 00:30
- ³¹ نفس المرجع
- ³² حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، دار البعث، ط1، الجزائر، سنة 1990، ص 32